من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم
الدكتور محمد احمد خلف الله

- ١ -

كان بين المناذرة والاكاسرة صلات حسنة أيام الجاهلية ، وكانت الرسل تغد فيما بينهما تحمل الهدايا من والى كل منهما .

وكان عدى بن زيد الشاعر المعروف واحدا من هؤلاء الرسل ، ووفد ذات يوم الى المنذر بن المنذر يحمل هدية كسرى اليه ، واتفق أثناء مقامه عند المنذر أن دخل بيعة من البيع تقربا الى الله ، فرأى فى البيعة فتاة برزة جميلة وقع فى هواها فى الحال .

كانت هذه الفتاة هند بنت النعمان ابن المنذر التى ولدت له من مارية الكندية .

ويروى الرواة قصة هند مع عدى أو قصة عدى مع هند على الوجه التالى .

***

قال ابن أبى سعد ، وذكر ذلك خالد بن كلثوم أيضا .

قالا : كان سبب عشقه اياها أن هندا كانت من أجمل نساء أهلها وزمانها ، وأمها مارية الكندية ، فخرجت فى خميس الفصح وهو بعد السبعانين بثلاثة أيام ، تتقرب فى البيعة ، ولها حينئذ احدى عشرة سنة ، وذلك فى ملك المنذر .

وقدم عدى حينئذ بهدية من كسرى الى المنذر ، والنعمان يومئذ فتى شاب، فاتفق دخولها البيعة وقد دخلها عدى ليتقرب .

كانت مديدة القامة عبلة الجسم ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها .

وقد كان جواريها رأين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها ذلك ، كى يراها عدى ، وانما فعلن ذلك من أجل أمة لهند يقال لها مارية ، وقد كانت أحبت عديا فلم تدر كيف تأتى له .

فلما رأت هند عديا ينظر اليها شق ذلك عليها ، وسبت جواريها ونالت بعضهن بضرب .

ووقعت هند فى نفس عدى ، ولبث حولا لا يخبر بذلك أحدا .

فلما كان بعد حول وظنت مارية أن هندا قد أضربت عما جرى وصفت له بيعة توما ، ووصفت لها من فيها من الرواهب ، ومن يأتيها من جوارى الحيرة ، وحسن بنائها ومسرجها ، وقالت لها :

ـ سلى أمك الاذن لك فى اتيانها .

فسألتها ذلك فأذنت لها .

وبادرت مارية الى عدى فأخبرته الخبر فبادر فلبس يلمغا كان قد كساه اياه ـ فرخشاه مرد ـ وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ـ وكان عدى حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقى الثغر وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ، فدخل البيعة .

فلما رأته مارية قالت لهند :

انظرى الى هذا الفتى ، فهو والله أحسن من كل ما ترين من السرج وغيرها .

قالت : ومن هو ؟ .

قالت : عدى بن زيد .

قالت : أتخافين أن يعرفنى ان دنوت منه لأراه من قريب ؟ .

قالت : ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك ؟ .

فدنت منه وهو يمازح الغلمان الذين معه وقد برع عليهم بجماله ، وحسن كلامه وفصاحته ، وما عليه من الثياب ، فذهلت لما رأته وبهتت تنظر اليه .

وعرفت مارية مابها وتبينته فى وجهها ، فقالت لها :

ـ كلميه .

فكلمته ، وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته ، وانصرف بمثل حالها .

فلما كان الغد تعرضت له مارية ، فلما رآها هش لها ، وكان قبل ذلك لايكلمها ، وقال لها :

ماغدا بك ؟

قالت : حاجة اليك .

قال : اذكريها ، فوالله لاتسالينى شيئا الا أعطيتك اياه . عرفته أنها تهواه ، وأن حاجتها الخلوة به على أن تحتال له فى هند ، وعاهدته على ذلك ، فأدخلها حانوت حمار فى الحيرة ووقع عليها .

ثم خرجت فأتت هندا ، فقالت :

ـ أما تشتهين أن ترى عديا ؟

قالت : وكيف لى به ؟

قالت : أعده مكان كذا وكذا فى ظهر القصر وتشرفين عليه .

قالت : افعلى .

فواعدته الى ذلك المكان ، فأتاه وأشرفت هند عليه ، فكادت تموت .

وقالت : ان لم تدخليه الى هلكت .

فبادرت الأمة الى النعمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد شغفت به ، وأن سبب ذلك رؤيتها اياه فى يوم الفصح ، وأنه ان لم يزوجها به افتضحت فى أمره أو ماتت .

فقال لها : ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك ؟

فقالت : هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه أنت ، وأنا أحتال فى ذلك من حيث لايعلم أنك عرفت أمره .

وأتت عديا فأخبرته الخبر ، وقالت :

ـ ادعه ، فاذا أخذ الشراب منه فاخطبه فانه غير رادك .

قال : أخشى أن يغضبه ذلك فيكون سبب العداوة بيننا .

قالت : ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدى طعاما واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام ، وذلك فى يوم الاثنين ، فسأله أن يتغذى عنده هو وأصحابه ، ففعل ـ فلما أخذ منه الشراب خطبها الى النعمان ، فأجابه وزوجه وضمها اليه بعد ثلاثة أيام .

ويقول الرواة : انها ترهبت بعد ثلاث سنين ، ومنعته نفسها ، وحبست نفسها فى الدير المعروف بدير هند فى ظاهر الحيرة حتى ماتت .

ويقول الرواة : كانت وفاتها بعد الاسلام بزمان طويل فى ولاية المغيرة ابن شعبة الكوفة ، وخطبها المغيرة فردته .

تحدث ابن سعد قال : مر المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة بدير هند، فنزل ودخل على هند بنت النعمان بعد أن استأذن عليها ، فأذنت له وبسطت له مسحا فجلس عليه ، ثم قالت له :

ـ ما جاء بك ؟

قال : جئتك خاطبا .

قالت : والصليب لو علمت أن فى خصلة من جمال أو شباب رغبتك فى لأجبتك ، ولكنك أردت أن تقول فى المواسم :

ـ ملكت مملكة النعمان بن المنذر ، ونكحت ابنته . فبحق معبودك أهذا أردت ؟

قال : اى والله .

قالت : فلا سبيل اليه .

فقام المغيرة وانصرف .

ـ ٢ ـ

كان قيس بن الخطيم يجهل أن أباه وجده قد قتلا . وكانت أمه تخشى مصير أبيه وجده ان هو هم بالاخذ بالثأر ـ لذا عمدت الى اقناع ابنها بأن أباه وجده قد ماتا ميتة طبيعية لاقتل فيها ولا ترصد .

اقتنع الابن فترة من الزمن ، ومضت الامور على ما قدرت أم قيس ، ولكن الاحداث لم تلبث ان كشفت عن الحقيقة فاندفع الابن الى الاخذ بالثأر ممن قتل أباه وممن قتل جده .

وتلك قصة قيس من قاتل ابيه وقاتل جده كما رواها الاقدمون .

***

حدث أبو عبيدة عن محمد بن عمار بن ياسر ، وكان عالما بحديث الانصار، قال :

كان قيس يوم قتل أبوه صبيا صغيرا ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عدى .

وخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيهلك ، فعمدت الى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجارا وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدك .

كان قيس لايشك أن ذلك على ذلك.

ونشأ أيدا شديد الساعدين ، فنازع يوما فتى من فتيان بنى ظفر ، فقال له ذلك الفتى :

ـ والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيرا لك من أن تخرجهما على .

فقال : ومن قاتل أبى وجدى ؟

قال : سل أمك تخبرك .

فأخذ السيف ووضع قائمه على الارض وذبابه بين ثدييه وقال لأمه :

ـ أخبرينى من قتل أبى وجدى ؟

قالت :ماتا كما يموت الناس وهذان قبراهما باتفناء .

فقال : والله لتخبرينني من قتلهما أو لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

فقالت : أما جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر .

قال : والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبى وجدى .

فقالت : يابنى ان مالكا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره فى أمرك واستعنه يعنك .

خرج قيس من ساعته حتى أتى جمله وهو يسقى نخله ، فضرب الجرير بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو فى البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غرارتين من تمر ، وقال :

من يكفينى أمر هذه العجوز ؟ـ يعنى أمه ـ فان مت أنفق عليها من هذا الخائط ـ البستان ـ حتى تموت ثم هو له ، وان عشت فمالى عائد الى ، وله منه ما شاء أن يأكل من تمره .

فقال رجل من قومه : أنا له .

فأعطاه الخائط ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دل عليه بمر الظهران ، فصار الى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه.

ثم نادى امرأة خداش : هل من طعام ؟

فاطلعت اليه فأعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجها ، فقالت :

والله ما عندنا من نزل نرضاه لك الا تمرا .

فقال : لا أبالى ، فأخرجى ما كان عندك .

فأرسلت اليه بقباع فيه تمر ، فأخذ منه ثمرة فأكل شقها ورد شقها الباقى فى القباع ، ثم أمر بالقباع فأدخل على امرأة خداش بن زهير ، ثم ذهب لبعض حاجاته .

رجع خداش فأخبرته امرأته خبر قيس فقال :

ـ هذا رجل متحرم .

أقبل قيس راجعا وخداش مع امرأته يأكل رطبا ، فلما رأى خداش رجله وهو على بعيره قال لامرأته :

ـ هذا ضيفك ؟

قالت : نعم .

قال : كأن قدمه قدم اخطيم صديقى اليثربى

فلمـــا دنا قيس قرع طنب البيت بسنان رمحه واستأذن ، فأذن له خداش فدخل اليه .

نسبه فانتسب وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يعينه وأن يشير عليه فى أمره ، فرحب به خداش وذكر نعمة ابيه عنده وقال :

ـ ان هذا الامر مازلت أتوقعه منك منذ حين . فأما قاتل جدك فهو ابن عم لى وأنا أعينك عليه ، فاذا اجتمعنا فى نادينا جلست الى جنبه وتحدثت معه ، فاذا ضربت فخذه فثب اليه فاقتله .

قال قيس : فاقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش ،فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له : ذو الخرصين ، فثار الى القوم ليقتلونى ، فحال خداش بينهم وبينى وقال :

ـ دعوه فانه والله ما قتل الا قاتل جده .

ثم دعا خداش بجمل من ابله فركبه، وانطلق مع قيس الى العبدى الذى قتل أباه حتى اذا كان قريبا من هجر أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فاذا دل عليه قال له :

ـ ان لصا من لصوص قومك عارضنى فأخذ متاعا لى ، فسألت من سيد قومه فدللت عليك ، فانطلق معى حتى تأخذ متاعى منه ، فان اتبعك وحده فستنال ما تريد منه ، وان أخرج معه غيره فاضحك ، فان سألك مم ضحكت فقل : ان الشريف عندنا لايصنع كما صنعت اذا دعى الى اللص من قومه ، انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فاذا رآه اللص أعطى كل شىء أخذ هيبة له ، فان أمر أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وان أبى الا أن يمضوا معه فأتنى به ، فانى أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

ونزل خداش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدى فقال له ما أمره خداش فاحفظه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى قيس ، فلما طلع على خداش قال له :

ـ اختر يا قيس اما أن أعينك واما أن اكفيك .

قال : لا أريد واحدة منهما . ولكن ان قتلنى فلا يفلتنك .

ثم ثار اليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فأنفذها من الجانب الآخر فمات مكانه .

فلما فرغ منه قال له خداش :

اننا ان فررنا الآن طلبنا قومه ، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله ، فان قومه لايظنون انك قتلته وأقمت قريبا منه ، ولكنهم اذا افتقدوه اقتفوا أثره ، فاذا وجدوه قتيلا خرجوا فى طلبنا فى كل وجه ، فاذا يئسوا رجعوا .

قال الرواة : فدخلا فى دارات من رمال هناك ، وفقد العبدى قومه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلا . فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعوا ، فكان من أمرهم ما قال خداش .

أقاما مكانهما أياما ثم خرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع الى أهله .